



الثقافة الإسلامية في السودان الغربي

د. عبد الفتاح سعيد سييسي
جامعة الآداب والعلوم الإنسانية - بامكو/ مالي



كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة العربية إلى أماكن كثيرة في إفريقيا، وبخاصة في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث ارتبط ظهور اللغة العربية وانتشارها بدخول الإسلام تلك المنطقة^(١) على أيدي فقهاء تجار العرب.

(١) انظر: اللغة العربية في مدينة تمبكتو بمالي، عبد الفتاح سييسي، ص ٦١، أطروحة ماجستير، كلية الدعوة، طرابلس ليبيا، ٢٠٠٤م.



كانت الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي منفتحة على العالم الإسلامي، الأمر الذي ساعد كثيراً على الانفتاح على الثقافة العربية الإسلامية

وبخاصة في تمبكتو وجني وكانم وغيرها، مع ملاحظة أنَّ بعضهم رحل إلى الشمال الإفريقي والمشرق العربي، وتعلموا على أيدي علمائها الأجلاء، ثم رجعوا إلى أرض الوطن حاملين راية العلم وشعلته، كما يعود النحل مُحَمَّلاً بالعسل الشهي، فتوسَّعوا في نشره بين أبناء جلدتهم بحماسة قوية ومتوقدة، وفي إشارة إلى تأكيد ذلك يقول الدكتور محمد الغربي: «ظهر مؤرخون سودانيون ندين لهم بكلَّ الفضل في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان، من أمثال أصحاب تاريخ السودان، وتاريخ الفتاش، وتذكرة النسيان. وبرز كُتَّاب التراجم، وعلى رأسهم: أحمد بابا، ومؤلفون في الأصول والتفسير، والمسائل [الفقهية] وعلوم اللغة، وأدباء وشعراء.. أعطوا للحركة العلمية دفعاً جديداً»^(٢)، وبذلك غدا هذا العنصر من الدعائم القوية والثابتة التي ارتكزت عليها الحركة العلمية في السودان الغربي.

٢- الرافد المغربي من الشمال الإفريقي:

يمثِّل أعلام العرب من الشمال الإفريقي الرافد الغالب من جملة الوافدين في الحركة

لقد حمل هؤلاء التجار لواء الإسلام على عاتقهم لتعليم المجتمع السوداني معالم الدِّين الإسلامي ومبادئه، وتعريفهم الآداب الإسلامية وقواعد الدِّين، وتعليم اللغة العربية بوصفها الأداة الضرورية لمعرفة كلِّ ذلك، وتنظيمهم على أسس جديدة من شأنها ترسيخ العقيدة الصحيحة في مجتمع السودان الغربي.

وكانت الممالك الإسلامية التي قامت في السودان الغربي منفتحةً على العالم الإسلامي، ووصل هذا الانفتاح أوجَهه في عصر مملكة سُغَيَاي الإسلامية، وبخاصة في عهد ملوك أسرة الأساكي، الذين فتحوا الباب على مصراعيه في وجه العالم الخارجي، الأمر الذي ساعد كثيراً على الانفتاح على الثقافة العربية الإسلامية، والاحتكاك بها بشكل كبير، فذاعت شهرة المنطقة، فشدَّ إليها العلماء والفقهاء رحالهم، وقصدوها من كلِّ حدب وصوب، وبخاصة المراكز الثقافية ك: تمبكتو، وجني، وكانم.. وغيرها، التي عُدَّت مآوى العلماء^(١)، فتلقَّتهم على الرَّحْب والسَّعة، على اختلاف مواطنهم، وعملوا بانسجام مع العلماء المحليين على تنشيط الحركة العلمية؛ التي صهرت بوتقتها أخيراً جميع الطاقات.

أهم الروافد التي أسهمت في تنشيط الحركة العلمية بالمنطقة:

أهمُّ هذه العناصر الثقافية التي أسهمت في تنشيط الحركة العلمية بالمنطقة؛ ما يأتي:

١- الرافد المحلي (الإفريقي):

الرافد المحلي السوداني يمثل العنصر الأساسي المتين للحركة العلمية في السودان الغربي، وقد يكون أغلبه تكوِّناً محلياً،

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٥٢١، ط ١، مؤسسة الفليح الصفاء الكويت.

(١) انظر: تاريخ السودان، عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعدي، نشر هوداس وبنوا، باريس ١٩٦٤م.

موسى بعد حجّته المشهورة سنة ١٣٢٥م، كما عملت مجموعة أخرى من الظروف على دفعهم للتوافد إليها؛ أهمّها تلك النكبة التي أدّت إلى سقوط الأندلس على أيدي الفرنجة، فقد قدم عددٌ منهم إلى المنطقة، وسكن بعضٌ منهم فيها نهائياً، ونظراً لما كان يحظى به هؤلاء العلماء من الاحترام والتقدير، وحرارة الاستقبال، وحفاوة الاستضافة، فضّلوا البقاء والإخلاص في التدريس ونقل المعرفة، فأحاط بهم الطلاب من كلِّ جانب، بحفاوة كبيرة وعناية شديدة، واستفادوا منهم أيّما استفادة.

٤- الرافد القادم من المشرق الإسلامي:

قام هذا الرافد بدورٍ عظيم في تنشيط الحركة العلمية في السودان الغربي، انطلاقاً من الصلات الثقافية والتجارية بين المشرق ومنطقة السودان الغربي، منذ عصر المماليك في مصر، مما جعل علماء يتوافدون إلى المنطقة طواعية، أو بطلبٍ من السلاطين؛ الذين لم يتردّدوا في الاعتماد على العلماء في الحكم، وتصيبيهم في مناصب إدارية مرموقة، الأمر الذي جعل المنطقة تحظى بعناية المشاركة، كما أنّ عدداً من طلبة السودان وعلمائها رحلوا إلى المشرق للدراسة، مما أسهم في تبادل العلماء بين الطرفين.

كما كان لرحلة منسى موسى إلى الأراضي المقدّسة، ومروره بمصر، أكبر الأثر في جذب انتباه العديد من النخبة المثقفة بالمشرق إلى الإقبال على الرحلة إلى القارة الإفريقية، حيث تبع حجّة منسى موسى رحيل علماء من مصر والحجاز إلى المنطقة ك: عبدالرحمن التميمي من الحجاز، ومن الجهة الأخرى: رحيل علماء أفارقة إلى مصر^(٤)، من أمثال:

(٤) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، حسن أحمد محمود، ص ٢٢٥، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣م.

العلمية بمنطقة السودان الغربي^(١)، وذلك نظراً لقربها من الشمال الإفريقي، وللصلات التاريخية القديمة بين الشمال ومدن غربي إفريقيا، الأمر الذي عزّز من عمق تلك الروابط ومتانتها، ومنحها دفعاً جديداً وقوياً، مثلما أتاح لها فرصاً فسيحة للانطلاق والتحليق نحو أبعاد شاسعة وآفاق رحبة.

ومنذ هذا التاريخ؛ فإنّ علماء الشمال الإفريقي كانوا يقصدون مدن إفريقيا جنوب الصحراء للإقامة بها، بصورة دائمة أو مؤقتة، وبذلك شكّل هذا العنصر أحد أهمّ عناصر الحركة العلمية في السودان الغربي، وما تزال السلالة المنحدرة من الشمال الإفريقي مقيمة فيها إلى يومنا هذا، كآل: الكونتا والأعراف^(٢)، الأمر الذي كان له دورٌ كبيرٌ في تنشيط الحركة العلمية من خلال تواصلٍ ثقافيٍّ حيٍّ بين الطرفين، مما جسّد قدراً من ظواهر التفاعل الإيجابي بين سكان المنطقتين.

٣- الرافد الأندلسي:

الواقع هو أنّ هذا الرافد بدأ يهاجر إلى مناطق السودان الغربي في أزمان متباعدة، يتعدّر ضبطها تاريخياً ك: أبي إسحاق الساحلي الأندلسي الذي بنى مسجد الجامع الكبير في تمبكتو^(٣)، حيث قدم إلى تمبكتو مع منسّا

(١) انظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا الشبكتي، ص ١٦، تحقيق عبدالحميد عبدالله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس ٢٠٠٠م؛ إزالة الريب والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وشنجيت؛ السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تيبكت البهية، صفحات متفرقة.

(٢) انظر: البراييش بنو حسان، بول مارتى، تعريب. محمد محمود ولد ودادي، ص ٩، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٨٥م؛ التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ص ١٦٩، ط ١، دار الواد طرابلس، ١٩٩٦م.

(٣) انظر: اللغة العربية في مدينة تمبكتو بمالي، عبد الفتاح سيسى، ص ٢٣١، مرجع سابق.

أحمد بن عمر أقيت، ومحمد محمود بغيغ، وغيرهما^(١)، فأسهمت رحلات العلماء، بين المشرق والغرب السوداني، في تنشيط الحركة العلمية وتطويرها وازدهارها في واقع المشهد الثقافي الإفريقي.

فإذا كان ما تقدّم نماذج عن أهمّ العناصر التي قامت بدور بارز في تنشيط الحركة العلمية في السودان الغربي وتثبيتها، فماذا عن المجالات التي ازدهرت فيها تلك الحركة؟

المجالات التي ازدهرت فيها الحركة العلمية:

منطقة السودان الغربي معروفة بارتباطها بالإسلام منذ دخوله إليها، وتعدّ مراكزها أهمّ المراكز الثقافية الإسلامية التي أسهمت في استقرار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية في غربي القارة الإفريقية، كما كان لأهل هذه المنطقة دور كبير في الإقبال عليها بشغف عظيم، والعمل على تطويرها ونشرها، وبلغت الحركة العلمية مرحلتها الذهبية في القرن العاشر الهجري (١٥ و ١٦ الميلادي)^(٢)، في ميادين عدّة، حيث إنّ المؤلفين الأفارقة ألفوا كثيراً من الكتب في معظم الفنون، ولهم تقييدات ومختصرات كثيرة، وشروح وتعليقات مفيدة، كما جمعوا غالباً بين المسائل الفقهية والأصولية في كتاب واحد، يقول الدكتور علي القاسمي: «إنّ علماء السودان الغربي أثروا اللغة العربية، بما ألفوه من أبحاث ودراسات قيّمة في شتّى مجالات المعرفة»^(٣).

(١) الثقافة العربية الإسلامية وانتشارها في غربي إفريقيا، نعيم قداد، مجلة المعرفة، العدد ١١، ص ٤٩، السنة الثانية.

(٢) انظر: اللغة العربية أعلامها وثقافتها في مال حتى نهاية القرن العاشر الهجري، ص ٢٣٠، رسالة ماجستير، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس - ليبيا ١٩٩٨م.

(٣) العلاقة بين اللغة العربية وشقيقاتها اللغات الإفريقية، ص ٥٤، ط ١، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٩٨٧م.

وأهمّ تلك الجوانب التي أثارها علماء السودان الغربي بالتأليف، وازدهرت فيها الحركة العلمية باللغة العربية، تتضح في الآتي:

أ- علوم الشريعة:

تعدّ العلوم الشرعية من أهمّ المجالات التي ازدهرت فيها الحركة العلمية في السودان الغربي، وذلك لما يكتنه الأفارقة من تقدير وافر للإسلام وعلومه المتنوعة، حيث إنّ ذلك الاهتمام الكبير بفنون العلم المختلفة، التي تضرّعوا فيها جاء من منطلق ديني بحث، فالإسلام - بطبيعة الحال - هو العامل المحرّك الذي دفعهم إلى القيام بذلك الدور الريادي في تنشيط الحركة العلمية؛ لذا من الطبيعي أن يكون للعلوم المتصلة بالشريعة الإسلامية نصيب الأسد في تلك الحركة، ذلك أنّ الإسلام الذي انساب من المنابت العربية قد توغل بثقافته المتدفقة في أعماق حياة المجتمع الإفريقي، كغيره من المجتمعات المسلمة، وامتزجت تعاليمه بوجودان أهله ومشاعرهم، ومن ثمّ أدرك الإنسان الإفريقي لحياته قيمة حضارية غير معهودة، فاندفع بذلك يتلمس السبيل إلى تعميق صلته بتلك العلوم الدينية التي فجّرت في أعماقه وحياته عوامل الإبداع والتألق.

ومن تبع تراجم علماء المنطقة، مثل الذين تحدّث عنهم أحمد بابا التمبكتي في (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، والسعدي في كتابه (تاريخ السودان)، وغيرهما من علماء التراجم، يدرك تمام الإدراك أنهم علماء متضلّعون في الفقه، وبخاصّة الفقه المالكي، والعقيدة والحديث وعلومه، والتصوف^(٤).. وغيرها من

(٤) لشدة ولعهم بالصوفية؛ كانوا يتناولون بعض الموضوعات النحوية، ويشرحونها بالطريقة الصوفية، إلى جانب الصيغة النحوية، مثال ذلك في باب (التنازع في العمل) يقول ابن مالك:

فأتت ثمراتها يانعة، في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يشنّ بعضهم الحرب على بعض، وهذا ما ذهب إليه المنصف للأعمال العلمية لعلماء الأفارقة: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، حين قال: «وقد ظهرت حركة العلم واسعة وقوية في السودان الغربي، في وقت لم يكن العالم قد بدأ يسمع عن أوكسفورد وكامبريدج وباريس، وغيرها من جامعات أوروبا، وظهرت حضارة إسلامية متطورة ونامية، آخذة بأسباب الرقي والتحضّر؛ في وقت كانت أوروبا تخوض حروباً فيما بينها»^(٣).

ومما يؤسف له أنّ هذه الجهود لا يزال أغلبها مخطوطاً، عرضةً للتلف وعاديات الزمن، ولو اهتمت الدول والمنظمات العلمية، ذات القدرات الاقتصادية والإمكانات المادية، بهذه المخطوطات^(٤)؛ لأفادت العالم أجمع بتلك الكنوز، التي لا تزال مغمورة لم تر النور بعد!

ب- علوم اللغة:

تعدّ العلوم اللغوية، وبخاصّة النحو والصرف والعروض منها، أهمّ المجالات العلمية التي حظيت بازدهار فائق في السودان الغربي، فقد أورد أحمد بابا، والسعدي، ومولاي أحمد بابير، وأحمد بلعراف التكني، مجموعة كبيرة من علماء اللغة، من خلال تراجمهم، ووصفهم بعلوم الكعب، وبلوغ القمّة في علوم اللغة وأسرار البيان.

(٣) الحركة الفكرية والثقافية في سنغاي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مجلة الفيصل، العدد ٨٩، ص ٨١، المملكة العربية السعودية، ١٩٨١م.

(٤) وذلك نظراً إلى أنّ الثقافة السائدة اليوم في البلد ثقافة فرنسية استعمارية، فلا تُعير اهتماماً للثقافة والعلم المكتوب باللغة العربية، بل معظم متقني مالي اليوم ينظر إليها على أنها تراث لا يستحق الاهتمام، لدرجة أنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن العلامة أحمد بابا، ولا عن أعماله العلمية، في وقت تكاد تكون لديهم دراية شبه شاملة بالفلاسفة الغربيين العلمانيين الملحدّين.. للأسف الشديد!

العلوم الشرعية، حتى إنّ درجتهم العلمية في هذا المجال قد تقدّمت إلى مراحل متطورة في النشاط العلمي والميدان المعرفي، فلم يقتصر ذلك النتاج العلمي كلّهُ على التركيز في شرح كتاب، أو حاشية لمصنف^(١)، مقلّدين أعمال علماء آخرين، دون الخوض في دراسة صميم الموضوعات، كما رَوّج بعض الباحثين الغربيين أمثال المستشرق ألفونس غيي الذي أشار إلى ذلك قائلاً: «كانت أعمالهم تدور في صورة مخطوطات، وكانت أعمالهم هذه تمثّل بعض الدراسات النحوية والفلسفية [التفسير]، ووضع شروح لبعض الكتب الدينية، وإعداد الخطب، ومناقشة بعض المسائل الفقهية»^(٢)!

ويكفي للردّ على هذا وأمثاله: ما تذخر به مكتبات المنطقة من الثقافة المكتوبة التي عرفها السودان الغربي منذ قرون طويلة،

إِنَّ عَامِلَانَ اقْتَضَيَا فِي اسْمِ عَمَلٍ قَبْلَ: فَلَوْ أَحَدٌ مِنْهُمَا الْعَمَلُ

فالمراد بالعاملين- على الطريقة الصوفية-: هو العامل للعالم والعامل للأخرة، وإذا اشترك هذان العاملان في صفة العمل: فإنّ أهل البصيرة اختاروا عمل الأخرة، واختار غيرهم عمل الدنيا.

أما عن الصيغة النحوية: فهي عبارة عن توجّه عاملين إلى معمول واحد، نحو: (كتب وبعث صاحبك صحيفته)، فأحد العاملين يعمل في ذلك الاسم الظاهر باتفاق الجميع، فذهب البصريون إلى عمل الأول لقربه، وذهب الكوفيون إلى الثاني لتقدمه. انظر: (تبيين المادح المقلد على ما كان عليه سلف تنبكتو)، محمود محمد ددب، ص ٤٧، غير منشور، مخطوط بخزانة المؤلف، الألفية في النحو، محمد بن مالك الأندلسي، ص ٢٧، ط ٢، منشورات دار الإيمان، دمشق ١٤٢١هـ؛ تيسير وتكميل شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، إعداد فتّة من المدرسين، قدّم له: محمد علي السلطاني، (٢١١/٢)، ط ١، دار العصماء، دمشق ١٩٩٧م.

(١) انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (١٤٩٣-١٥٩١م)، عبد القادر زبادية، ط ١، ص (٥٢٢، ٥٢٣)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٤م.

(٢) L'islam dans L'Afrique Occidentale Française , (٢) Alphonse gouille, p.224, Edition La rose, Paris 1952.

وربما يرجع هذا الاهتمام البالغ بالعلوم اللغوية إلى اعتبارها الأداة الأساسية في فهم العلوم الشرعية ومقاصدها، لذا انكبوا على دراستها بحماسة شديدة؛ لمعرفة تمام المعرفة، فأثروها بمؤلفات قيّمة، غاية في السهولة والمرونة، وإن كانت آثار التقليد في بعض الأحيان بادية عليها^(١).

ولا عجب في هذا الاهتمام الكبير بالعلوم اللغوية؛ لأنها- كما بينا سالفاً- المفتاح الأساسي للوقوف على فهم مصادر الشريعة، ومعرفة مقاصدها، والغوص في عمقها، واكتشاف دُررها، وفي تأكيد هذا يقول ابن فارس: «العلم بلغة العرب واجبٌ على كل متعلّق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا... وذلك أنّ القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله رّ عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله- عز وجل- وما في سنة رسول الله رّ؛ من كلّ كلمة غريبة، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدّاً»^(٢).

ج- الأدب:

تعدّ الدراسات الأدبية إحدى أهمّ الوسائل التي تساعد على فهم العلوم الدينية، وأسرار العربية، ولمّا كان الأمر كذلك؛ فإنّ علماء السودان الغربي اعتنوا بها اعتناءً كبيراً، وبخاصّة المنظوم والمنثور منها، وخصوصاً عندما بدأت شخصيات أدبية كبيرة في التوافد عليها من المشرق الإسلامي وشمال

إفريقيا، ممن اختاروا السكنى^(٣) في السودان الغربي، أمثال: عبد الرحمن التميمي، سيدي يحيى التادلسي، فياض الغدامسي، إسحاق التواتي، ومنصور الفزاني، وسالم بن عبيدة المصري^(٤)، وغيرهم من الشخصيات الأدبية، الأمر الذي يؤكد أنّ السودان الغربي قد شهدت نشاطاً أدبياً، واکب مسيرتها العلمية. وكان لصولته فيها صدّى قويّ أفضى إلى تطوّره في العصور اللاحقة، لدرجة أصبح الكثير من العلماء والطلبة يحفظون دواوين الشعراء، ويستشهدون بأشعار وكتابات شعراء العرب، فحاولوا بهذا أن يقلدوا الأدباء القدامى في نظم الشعر وكتابة النثر، فتركوا جملة من القصائد الأدبية.

وقد ذهب أحد الباحثين إلى أنّ النشاط الأدبي في السودان الغربي «بلغ نموّاً كبيراً، وإشراقاً لامعاً، نبغ فيه رجال لا ينازع في مقدرتهم أحد... متناولين مختلف المعاني البيانية والمحسنات البديعية وغيرها»^(٥)، وذلك بالرغم من أنّ معظم من نظم تلك القصائد فقهاء؛ عُرفوا في مجال الفقه أكثر من ميدان الأدب^(٦).

(٣) الأدب العربي في تنبكت من خلال خزائنه النصية إلى نهاية القرن العاشر الهجري (السادس عشر إفرنجي)، سمبي خليل ماغاسوبا، ص١٤٢، رسالة ماجستير غير منشور كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ٢٠٠١م.

(٤) انظر: تاريخ الفتاش، محمود كمت، ص٥٢؛ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٦٠١، مصدر سابق؛ تاريخ السودان، ص (٢٢-٢٣، ٥٨-٦٠)، مصدر سابق.

(٥) الأدب العربي في تنبكت، ص١٥٣، المرجع السابق.

(٦) بما فيها القصائد التي درسها الباحث سمبي ماغاسوبا في رسالته كقصائد: سيدي محمد المختار الكنتي، وسيدي يحيى الكنتي، وإبراهيم أحمد بغيغ، وغيرهم، التي هي عبارة عن قصائد مبنوثة هنا وهناك، لم تجمع في دواوين متكاملة، انظر: المرجع نفسه، ص١٤٥، فما بعده.

(١) ربما يرجع سبب هذا التقليد إلى حرصهم الشديد على المحافظة على اللغة كما جاءت من منابها الأصلية، والخوف من التحريف.

(٢) الصحابي في فقه اللغة ومساثلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، ص٨، ط١، مطبعة المعارف، بيروت، ١٩٩٣م.

ومن تلك القصائد قصيدة أحمد بابا التمبكتي الذي كان لتلك النكبة التي مرّت بها نفسه أعمق الآثار فيها، فعبر عن الحنين إلى وطنه تمبكتو، حينما كان منفيّاً في العاصمة السعدية مراکش، وجاء في مستهلّها:

أَيَا قاصِداً كَاغُو فَعَجَّ نَحْوَ بِلَدَتِي
وَزَمَزَمَ لَهُم بِاسْمِي وَبَلَغَ أَحْبَبَتِي
سَلاماً عَظِيماً مِنْ غَرِيبٍ وَشَائِقَ
إِلَى وَطَنِ الْأَحْبَابِ رَهْطِي وَجِيرَتِي
وعندي أقارب هناك أَعَزَّةٌ

على السّادة الألى دَفَنْتَ بَغْرَبَتِي
أبي زيد هم شَيْخُ الفضائل والهُدَى
وصنّو بني عَمِّي وأقربُ سادتي
وسيفي فسيفُ البَيْنِ سَلُّ لَفَقْدَهُمُ

عليّ وَهَدَّ المَوْتَ رُكْنِي وعِمْرَتِي
ولا تنسَ عبدَ الله ذا المجدِ والنّدى
فقد مدَّ حُزْنِي فَقَدْ قُوْتِي وعِشْرَتِي
وشبّانُ بَيْتِي سارِعُوا عن أخيرهم
إلى مَلِكِ الْأَمَلَاكِ في وَقتِ غَرَبَتِي
فَوَا أَسْفاً مِنْهُمْ وَحُزْنِي عَلَيْهِمُ

فيا ربّاً فارْحَمْهُمْ بواسعِ رحمة^(١)

وقصيدة سيدي يحيى التادلسي وهو يرثي شيخه: محمد مودب محمد الكابري، في اثنين وعشرين بيتاً، وصَفَ فيها مكانة هذا العالم، وذكر أنه من العلماء البارزين المشهورين، بما كان يسلكه من طريقة الشرح وتوضيح المعاني، والأسلوب المبسّط، والتعمّق في الدروس، ومن تلك الأبيات:

أَطْلَابَ عِلْمِ الْفَقْهَةِ تَدْرُونَ مَا الَّذِي

يُثِيرُ هُمُومَ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ وَاقِدٍ

يُثِيرُ هُمُومَ الْقَلْبِ فَقَدْ سَمِيعُ^(٢)
فَقِيهِ حَلِيمٌ حَامِلٌ لِلضَّرَائِدِ
وَفَتَّاقٌ تَهْذِيبٌ بِحُسْنِ الْفَوَائِدِ
بِحُسْنِ تَعْلِيمٍ مُقَرَّبٍ فَهْمُهُ
رِبَاطاً طَبَاراً أَمْرُهُ فِي التَّزَايِدِ
محمد الأستاذ مؤدّب ذي النُّهَى

فيا عجباً! فهل بعده من معين
ويا عرباً فهل بعده من مجالد^(٣)
فهذه الأبيات توضّح لنا الطريقة التي يتبعها هذا العالم الجليل في التدريس، وصبره على المناقشة في المسائل المختلفة مع طلابه؛ حتى يتمكنوا من بلوغ أهدافهم من التحصيل.

وقصيدة محمد بابا بن محمد الأمين في مدح يحيى الولاتي، وهي:

نِيلَ الرِّبَاحِ أَوْ النِّجَاحِ السَّرْمُدي
وَالسَّيْرِ فِي النُّهْجِ الْقَوِيمِ السَّرْمُدي
فازت به (تمبكتو) دون مغاربٍ
ومشارقٍ من كلِّ قُطْرٍ أَبْعَدِ
فتباشرت أيامها وتشامت
أعلامها من راسياتِ رُكُودِ
وبحبّها من فضله أرجأها

محمولُ سرِّ الوحي نورُ المهتدي^(٤)
وأمثال هذه القصائد موجودة بشكل غير منظم في أثناء الكتب والمخطوطات بالمئات؛ إن لم نقل بالآلاف. هذا وإضافة إلى تلك،

(٢) سميدع: بفتح السين والميم: السيد الكريم، الشريف السخي، الموطأ الأكناف، والشجاع والذئب، والرجل الخفيف، والسيّف. تطلق على كل هذه المعاني لغةً، انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، فصل/ السين، باب/ العين، (٤٠/٣)، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٧م.

(٣) تاريخ السودان، ص٤٩، مصدر سابق، مملكة سنغاي، ص١٤٩، مرجع سابق.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٥٤٥، مرجع سابق.

(١) انظر: نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، ص٩٨، مصدر سابق، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص١٥٨، مرجع سابق.

ه- التراجع:

حظيت التراجع هي الأخرى باهتمام الفقهاء والعلماء، نظراً لعنايتهم الكبيرة بتسجيل تاريخ العلماء والفقهاء والقضاة والملوك والرؤساء والتعريف بهم^(٣)، وقد برع علماء السودان الغربي وغيره في هذا المجال، وابتكروا فيه أيما ابتكار، وبخاصة تراجم العلماء، فأنجبوا فيه إنتاجاً رائعاً رائعاً؛ تمثل في مصنفات نفيسة، عُدَّت من أهم المصادر الأساسية في معرفة علماء السودان وتاريخهم.

ومن أنفس ما كُتِب في هذا المجال:

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التمبكتي، وهو ذيل على كتاب:

- الديباج في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المدني.

- ومنح الرب الغفور فيما أهمل صاحب فتح الشكور، لأبي بكر بن أحمد المصطفي الولاتي.

- وإزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء، لأحمد بلعراف التكني.

- والسعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية، لمولاي أحمد بابير.

ومما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ هناك مجالات أخرى غير ما ذكرنا، ازدهرت فيها الحركة العلمية في السودان الغربي ك: علم الطب، وعلم الفلك مثلاً^(٤)، خاصة إذا أدركنا مدى اهتمام المجتمع الإفريقي بهما لحاجته الملحة إليهما في شؤون العلاج، وظروف السفر، وغيرهما كثير.

هناك روايات من قبل بعض الباحثين^(١) تشير إلى وجود إنتاج أدبي رفيع المستوى في شكل قصص كُتِبَت على شاكلة (مقامات الحريري).

د- التاريخ:

لَمَّا كان علم التاريخ أهم العلوم التي يعرف الخلف بها أخبار أسلافهم وأجدادهم؛ فإنه قد حظي بإقبالٍ منقطع النظير من طرف النخبة الإفريقية المثقفة، مما أدَّى إلى إثرائه بمؤلفات خاصة في تغطية أحداث المنطقة بشكل عام، الشيء الذي كان له دورٌ كبير في تفعيل ظاهرة نشاط الحركة العلمية العربية وازدهارها؛ من خلال جهود هؤلاء العلماء في هذا المجال. وقد عُدَّت المصنفات في هذا الميدان من أهم المصادر المعتمدة والأساسية- التي لا غنى عنها لأي باحث- في معرفة تاريخ بلاد السودان الغربي كُله، ومن أهم تلك المصنفات:

- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، لمحمود كعت التمبكتي.

- تاريخ السودان، للشايخ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي التمبكتي...

وغيرهما.

وهكذا يتبين لنا ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي في هذا المجال، إذ لولا ذلك النضج العلمي في تناول التاريخ الإفريقي؛ لأصبح جزءٌ كبير من تاريخ الإنسانية مغموراً، وفي تأكيد ذلك يقول محمد الغربي: «وقد ظهر مؤرخون سودانيون ندين لهم بكل الفضل، في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان، من أمثال: تاريخ السودان، تاريخ الفتاش، وتذكرة النسيان»^(٢).

(٣) انظر: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ص (١٥٩، ١٦٣)، مرجع سابق، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص (٥٣٧، ٥٣٩)، مرجع سابق.

(٤) انظر: التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، علي عبد الله الاخاتم، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثالث، ص ٣٤، سنة ١٩٨٧م.

(١) محمد محمود ددب: باحث ومؤرخ وأديب تمبكتي في مقابلة معه ببيته، مساء يوم الأربعاء الموافق: ٢٠١٣/٠٦/٠٤م.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٥٢١، مرجع سابق.

أسلوب الكتابة:

ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراكش...»^(٢).

فمما لا شك فيه؛ أنَّ هذا النموذج يجسّد حقيقة مدى روعة الأسلوب السوداني في الكتابة، خاصّةً إذا أخذنا في الاعتبار أنَّ صاحبه ليس بعربي، وإنما هو إفريقي تمبكتي، اجتهد في دراسة اللغة العربية حتى تمكّن منها.

وقد بلغ فنُّ الكتابة في السودان الغربي أوجّه مع العلامة أحمد بابا، الذي امتاز أسلوبه بالمتانة والجزالة والموضوعية العلمية، وغزارة ثروته اللغوية، يقول في مقدّمة كتابه (نيل الابتهاج)، الذي أشرف على تحقيقه ونشره الباحث الليبي الدكتور عبد الحميد الهرامة- في إشارة إلى الدوافع التي حدت به إلى التأليف في هذا الموضوع حالة إقامته منفياً في مراكش بالمغرب-: «فما زالت نفسي تحدّثني من قديم الزمان، وفي كثيرٍ من ساعات الأوان، باستدراكي عليه [ابن فرحون المدني، في كتابه: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب] ببعض ما فاتته، أو جاء بعده من أئمة الأعيان، فقيّدت فيه بحسب الإمكان، حين كنتُ ببلد بعيدة عن نيل المقصد من ذلك، لبُعدها عن مدن العلم، وكُتِبَ هذا الشأن، فقصر بي الحال مع عدم مساعدة الزمان، لما بُلينا به من حوادث الوقت، وفتنة تشغل عن كلّ فرض، وترمي بشرر كالقصر في الطول والعرض»^(٣).

وبذا يتجلّى لنا مدى جزالة الأسلوب الإفريقي التمبكتي، وقدرة علماء السودان الغربي على صياغة الأفكار في قالبٍ فنيٍّ جميل.

هذا، ولقد بارك الدكتور محمد الغربي منهج أحمد بابا وأسلوبه في جزالته ورقّيه العلمي

تميّز أسلوب الكتابة في السودان الغربي- في جانبٍ منها- بالتعبير عن المراد بألفاظٍ واضحة، بعيدة عن اللبس والغموض، لغرض توصيل الفكرة وتوضيحها بدقّة، دون مراعاة البناء الهيكلي المؤثّر الجذّاب، الأمر الذي جعل معظم الكتاب لا يتحرّجون في استعمال بعض الكلمات المحلية (الدارجة): ليفهمها المتلقّي، أو جملٍ ملتوية^(١).

غير أنَّ معظم المؤلفين وصل إلى درجة التناسق والتألف في أداء المعاني التي يتطلبها الموقف الذي سيق الأسلوب للتعبير عنه، ويمكن أن نلمس ذلك بوضوح في معظم مؤلفات علماء الأفارقة ك: (تاريخ السودان) للسعدي، و(مرآة التعريف بفضل العلم الشريف) لأحمد بابا التمبكتي، و(الأجوبة المهمة في المسائل الملمة) لسيدى المختار الكنتي، و(وقاية المتكلم من الخطأ المثلّم) لمحمد بن باد الوافي، وغيرها من الكتب والمخطوطات التي يمكن أن نلمس فيها ذلك الأسلوب العربي البديع بشكلٍ عام.

وهذا نموذج من ذلك، يبيّن فيه صاحبه دوافع ترجمته لعلماء المنطقة وأعيانها، فيقول: «... ولمّا رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد، كثير الفرائد، لما فيه معرفة المرء أخبار وطنه، وأسلافه، وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله- سبحانه- في كُتِبَ ما رأيت من ذكر ملوك السودان أهل سنجي، وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تمبكتو ونشأتها، ومَن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطّنوا فيها، وغير

(١) يكفي في الإشارة إلى أمثلة من هذا النوع بعض النصوص المقتبسة من المصادر السودانية؛ المبثوثة في هذا البحث.

(٢) تاريخ السودان، ص٢، مصدر سابق.

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص٢٨، مصدر سابق.



أثرى علماء السودان الغربي مجالات عدة بالتأليف باللغة العربية، وهي: النحو والصرف والعروض والعلوم الشرعية والأدب والتاريخ والتراجم

مما جعلت السودان الغربي منارةً وقدَّ إليها طلاب وعلماء من أماكن مختلفة، عملوا معاً في تنشيط حركة الثقافة العربية، ونسج شبكة حضارة الإسلام في تلك المنطقة، صهرت في بوتقتها أخيراً جميع الطاقات.

وهذا يوضِّح لنا من جرّاء هذه الثورة العلمية: أنّ لغة العربية دوراً مميزاً لا يُستغنى عنه في استيعاب تلك الثقافة وامتصاصها، ومن ثمّ لزم الاهتمام بها والتعمّق فيها بوصفها أداةً لنقل المعرفة الإسلامية؛ ليتجاوز نطاق الاهتمام بها تلك المجالات العلمية التقليدية، كي تفرض بذلك نفسها على واقع الحياة الاجتماعية بمبادلاتها العلمية، وتفاعلاتها اليومية، ولتصبح اللغة العربية كذلك إحدى أهمّ اللغات الإفريقية وأعمّها على الصعيدين الاجتماعي والثقافي ■

قائلاً: «وأهمّ ما امتازت به أعمال أحمد بابا في هذا المجال: عمق النظر، وغزارة المادّة، مع تجنّب الإسفاف أو الاستطراد، وقدرة كبيرة على الترتيب»^(١).

ويُدلي علي عبد الله الخاتم بتقييمه لجملة الأساليب السودانية قائلاً: «... وكان لبعضهم أساليب مميزة، أعطت مؤلفات قيّمة ومشهورة، وبيّن أيدينا أربعون مخطوطة من مؤلفات أحمد بابا إمام تمبكتو»^(٢).

وهذا مع الاعتراف بأنّ بعضها - أحياناً - يعاني من الركاكة في إيصال الفكرة بالشكل الذي نراه في بعض النصوص المقتبسة من بعض المصادر المهمة كتاريخ الفتاش مثلاً. وهكذا يتبيّن لنا، من خلال هذا العرض المتواضع، أنّ الحركة العلمية في السودان الغربي ازدهرت في معظم العلوم الشرعية واللغوية، وبخاصّة النحو والصرف، والآداب، ومجال التاريخ، والتراجم، وأسلوب الكتابة، وذلك نتيجة الاهتمام البالغ بها، كما بيّنا أنها في أغلب الأحيان قد تحرّرت من ربة التقليد، حيث ألّف العلماء الأجلاء مصنّفات مهمّة، عُدّت من المصادر المهمة التي لا غنى عنها لأي باحث يدرس اللغة العربية في غرب القارة الإفريقية.

الخلاصة:

أنّ هذه الدائرة (السودان الغربي)، منذ أنّ دخلتها الثقافة العربية الإسلامية، أقبل علماؤها عليها إقبال الصّداء على الماء ينهلون من معينها، فازدهرت الحركة العلمية أيّما ازدهار، نتيجة استتباب الأمن والعدل والرخاء، فانتشرت المكتبات الخاصّة التي اقتناها العلماء والأثرياء،

(١) بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٥٤٢، مرجع سابق.

(٢) التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، ص ٣٤، مرجع سابق.